فلسفة التسامح عند جون لوك و أثرها في بناء الدولة المدنية

The Philosophy of Tolerance in John Locke and Its Impact on the Formation of the Civil State

مسعود رحومة علي أبوشنشانة

قسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية الزنتان - جامعة الزنتان

الملخص

يدرس هذا البحث فلسفة جون لوك في التسامح والدولة المدنية، في سياق أوروبي اتسم بالصراعات الدينية والسياسية والحروب المذهبية التي مزّقت المجتمعات المسيحية، ركّز البحث على رسالة لوك في التسامح وكتابه الحكم المدني، لاستكشاف الأسس الفكرية لمفهوم التسامح وفصل السلطات في الدولة الحديثة.

أظهرت الدراسة أن التسامح عند لوك يقوم على احترام حرية الضمير والاعتقاد، ورفض تدخل الدولة في الشؤون الدينية، مع التمييز الواضح بين وظيفة الدين (خلاص النفوس) ووظيفة الدولة (حماية الحقوق المدنية والعدالة)، كما تبين أن التسامح ليس مطلقًا عند لوك، إذ استثنى بعض الحالات مثل من ينكر وجود العدالة الالاهية أو الجماعات التي تهدد استقرار المجتمع، وهو ما يكشف عن مفارقات في مشروعه بين النزعة الليبرالية والخلفية الدينية.

أما الدولة المدنية عند لوك، فهي نتاج عقد اجتماعي إرادي بين الأفراد، تهدف إلى حماية حقوقهم الطبيعية في الحياة والحرية والملكية، ومحدودة في سلطتها بخضوعها للقانون، مع إمكانية عزل الحاكم إذا انتهك العقد الاجتماعي، وقد أظهر البحث أن فلسفة لوك أسست لقاعدة الدولة الحديثة، حيث سيادة القانون، وحرية الضمير، والمساواة بين الأفراد.

Abstract

This research examines John Locke's philosophy of tolerance and the civil state within a European context characterized by religious conflicts, political tensions, and sectarian wars that fragmented Christian societies. The study focuses on A Letter Concerning Toleration and Two Treatises of Government to explore the intellectual foundations of the concept of tolerance and the separation of powers in the modern state.

The study shows that Locke's concept of tolerance is based on respect for freedom of conscience and belief, and on the rejection of state interference in religious affairs. He makes a clear distinction between the function of religion—namely, the salvation of souls—and the function of the state, which is to protect civil rights and ensure justice. It also becomes evident that tolerance, according to Locke, is not absolute, as he excluded certain cases, such as those who deny the existence of divine justice or groups that threaten social stability. This reveals certain tensions in his project between his liberal orientation and his religious background.

As for the civil state, Locke conceives it as the result of a voluntary social contract among individuals, aimed at protecting their natural rights to life, liberty, and property. Its authority is limited by its subjection to law, with the possibility of removing the ruler if he violates the social contract. The research concludes that Locke's philosophy

laid the foundation for the modern state, particularly in establishing the rule of law, freedom of conscience, and equality among individuals.

استلام الورقة: 2026-02-16 - قبول الورقة: 2026-02-24 - نشر الورقة: 2026-03-02

كلمات مفتاحية: التسامح -الدولة -المدنية -فلسفة -جون لوك -السلطة السياسية.

المقدمة

يعد التسامح من القيم الإنسانية الأساسية التي ساهمت في بناء المجتمعات الحديثة، سواء على المستوى الأخلاقي أو السياسي، لما له من دور في ضبط العلاقات بين الأفراد والجماعات المختلفة دينياً واجتماعياً وسياسياً، وفي أوروبا في القرن السابع عشر، كانت الحروب الدينية والصراعات بين السلطة الدينية والسلطة السياسية تهدد السلم الاجتماعي والاستقرار المدني، ما دفع الفلاسفة إلى البحث عن مخرجات عقلانية لمعالجة هذه الأزمات.

في هذا السياق، برز الفيلسوف الإنجليزي جون لوك كمفكر مؤثر في الفكر السياسي الحديث، خاصة من خلال كتابه رسالة في التسامح (1689)، الذي اعتبر فيه التسامح ليس مجرد فضيلة أخلاقية، بل مبدأ سياسي وأداة لتأسيس دولة مدنية عادلة تحمي حقوق الأفراد وتحترم حرية الضمير، ويقوم مشروع لوك على تمييز واضح بين وظيفة الدولة ووظيفة الدين، بحيث تكون الدولة مسؤولة عن حماية الحقوق المدنية وضمان العدالة والنظام، بينما يظل الدين شأناً شخصياً يختص الفرد بالاقتناع بمبادئه دون تدخل أو إكراه.

ويكتسب التسامح عند لوك أهمية كبيرة فهو يحمي الحقوق الأساسية للأفراد ويضمن استقرار الدولة المدنية، وفي الوقت نفسه يسهم في تهذيب ممارسة الدين وتجنب نزاعات السلطة الدينية والسياسية، ومن هنا يهدف هذا البحث إلى دراسة مفهوم التسامح عند جون لوك وبناء الدولة المدنية الحديثة، من خلال دراسة التسامح، وعلاقته بالحقوق المدنية وسيادة القانون، لتسليط الضوء على مساهمته الفكرية في مشروع الدولة المدنية الحديثة.

- **تحديد مشكلة البحث:**

تواجه المجتمعات البشرية عبر التاريخ إشكالية التوازن بين حرية الضمير والاستقرار السياسي، وهو صراع تجلّى بوضوح في أوروبا الوسيطة، حيث اصطدمت السلطة الدينية بالسلطة السياسية، واندلعت الحروب المذهبية التي مزّقت النسيج الاجتماعي، وأضعفت قيم المحبة والتسامح الديني، ومن هنا برزت الحاجة إلى إعادة النظر في العلاقة بين الدين والدولة، وإنشاء مفهوم يُمكّن الفرد من ممارسة معتقداته بحرية دون تهديد للسلم المدني.

يُعدّ جون لوك من الفلاسفة الأوائل الذين حاولوا معالجة هذه الإشكالية، من خلال تقديم مشروع فلسفي وسياسي يضمن التسامح الديني وفصل السلطات، ويركّز على حماية الحقوق المدنية للمواطنين، وتكمن مشكلة البحث في دراسة قدرة فلسفة لوك على تأسيس مشروع تسامح ديني مدني متوازن، يحقق الحرية الفردية ويحمي السلم الاجتماعي، مقابل حدود هذا المشروع ومفارقات تطبيقه في الواقع، مما يطرح إشكالية مركزية حول مدى إمكانية تعميم أفكار التسامح والدولة المدنية على بيئات مختلفة خارج السياق الأوروبي الذي نشأ فيه.

- **تساؤلات البحث:**

1. ما هو مفهوم التسامح عند جون لوك، وما الأسس الفلسفية والسياسية والدينية التي يستند إليها؟
2. كيف يحدد لوك العلاقة بين السلطة الدينية والسلطة المدنية، وما آليات الفصل بينهما؟
3. ما هو مفهوم الدولة المدنية عند لوك، وما الحقوق الطبيعية للأفراد التي يجب حمايتها؟
4. ما هي حدود التسامح التي وضعها لوك، ولماذا استثنى الملحدين والجماعات الخارجة عن النظام المدني؟

5. ما هي المفارقات والتوترات الداخلية في مشروع لوك للتسامح، وكيف تؤثر على قابلية تطبيقه عمليًا؟
6. إلى أي مدى أسهمت رؤى لوك في التسامح والدولة المدنية في تأسيس الفكر السياسي الليبرالي الحديث وحماية حرية الضمير والمواطنة؟

- **أهداف البحث:**

1. تحليل مفهوم التسامح عند جون لوك وأساسه الفلسفي والسياسي والديني.
2. دراسة العلاقة بين السلطة الدينية والسلطة المدنية في نظر لوك وكيفية الفصل بينهما.
3. توضيح مفهوم الدولة المدنية عند لوك، وحقوق الأفراد الطبيعية التي يجب حمايتها.
4. الكشف عن حدود التسامح ومفارقات مشروع لوك، خاصة فيما يتعلق بالإلحاد والسلطة المدنية.
5. تقييم أثر رؤى لوك في تأسيس الدولة المدنية الحديثة وحماية حرية الضمير والمواطنة.

- **أهمية البحث:**

- **أهمية علمية:**

1. يسهم البحث في فهم الفكر السياسي والفلسفي لجون لوك، وإبراز دوره في تطوير مفاهيم الحرية الفردية والتسامح والدولة المدنية.
2. يساعد على دراسة العلاقة بين الدين والسياسة في التاريخ الأوروبي، وتأثيرها على النظرية الليبرالية الحديثة.

- **أهمية عملية:**

1. تقديم رؤى نظرية يمكن تطبيقها في مجالات بناء السياسات المدنية الحديثة وتعزيز حقوق الإنسان وحرية المعتقد.
2. المساهمة في ترسيخ قيم التسامح بين مختلف الطوائف والمذاهب، وضمان الفصل بين الدين والدولة في المجتمعات المعاصرة.

- **منهجية البحث:**

يعتمد البحث على المنهج التحليلي الوصفي من خلال:

التحليل النصي: دراسة نصوص كتاب رسالة في التسامح وجوانبها الفلسفية والسياسية.

المنهج التاريخي: وضع أفكار لوك في سياق الأحداث.

الاستنتاج والتحليل النقدي: تحديد حدود التسامح ومفارقات مشروع لوك، واستكشاف أثره على الفكر السياسي الحديث.

- **خطة البحث:**

المبحث الأول: ماهية التسامح عند جون لوك:

المطلب الأول: مفهوم التسامح عند جون لوك.

المطلب الثاني: رسالة جون لوك في التسامح.

المبحث الثاني: ماهية الدولة المدنية ونشأتها عند جون لوك:

المطلب الأول: مفهوم الدولة المدنية عند جون لوك.

المطلب الثاني: نشأة الدولة المدنية.

المبحث الأول

ماهية التسامح عند جون لوك

المطلب الأول: مفهوم التسامح عند جون لوك:

يُعدّ جون لوك من أبرز المنظّرين لفكرة التسامح في الفكر السياسي الحديث، وقد عرض رؤيته في كتابه رسالة في التسامح التي كُتبت باللاتينية سنة 1685 ونُشرت سنة 1689، في سياق أوروبي اتسم بالصراعات والاضطهاد الديني، وقد دافع لوك فيها عن الليبرالية السياسية والدينية، مؤكدًا أن محدودية العقل الإنساني لا تبيح لأي فرد أو سلطة فرض معتقدها على الآخرين.

يرتكز مفهوم التسامح عند لوك على التمييز الواضح بين وظيفة الدولة ووظيفة الدين؛ فالدولة هيئة مدنية غايتها حماية المصالح الدنيوية للأفراد كالحياة والحرية والملكية، ولا شأن لها بخلاص النفوس الذي يعد أمرًا إلهيًا يرتبط بقناعة الفرد الداخلية، لذلك رفض لوك تدخل السلطة السياسية في الشؤون الدينية، كما رفض أن تحتكر أي كنيسة أو حاكم حق فرض العقيدة[1].

يرى الباحث أن التسامح عند جون لوك ليس مجرد فضيلة أخلاقية، بل مبدأ سياسي يؤسس لدولة مدنية تقوم على حماية الحقوق الطبيعية، وحياد السلطة تجاه المعتقدات، واحترام حرية الضمير، وقبول الاختلاف الديني بين الافراد مع الاحتفاظ بالحقوق المدنية.

تعد رسالة في التسامح لجون لوك من أبرز الأعمال الفلسفية والسياسية التي تناولت مفهوم التسامح الديني في سياق أوروبا المتأثرة بالصراعات المذهبية والحروب الدينية، كُتبت الرسالة سنة 1689 باللاتينية، ووجّهت أساسًا إلى النخب المثقفة، في إطار تقليد فلسفي تواصلي يسعى لتوضيح المواقف الفكرية والعقلانية، وهو ما يفسر اختيار لفظ "رسالة" بدل "خطاب"، حيث أن الرسالة تعكس طبيعة الحوار والتواصل المبني على الوعي الفلسفي لا التوجيه الجماهيري[2]، ويرى لوك أن جوهر التسامح يتمثل في احترام حرية الضمير، وقبول الاختلاف الديني بين الأفراد والكنائس، مع الحفاظ على الحقوق المدنية، إذ لا يجوز المساس بها باسم العقيدة أو الدين، كما أكد على التمييز الصارم بين وظيفتي الدين والدولة، فالدين غايته خلاص النفوس، بينما الدولة مهمتها حماية حياة الأفراد وحرية معتقداتهم وملكياتهم، وضمان العدالة والنظام الاجتماعي، ومن هنا دعا إلى فصل تام بين السلطتين، معتبرًا أن الإيمان الحقيقي لا يمكن فرضه بالقوة، بل يقوم على الاقتناع العقلي الحر، وهو ما يضمن فاعلية التسامح.

يرى لوك بأن التسامح يتأسس في ثلاثة ضوابط وهي: الخلاص والكنيسة والحاكم المدني، ففي البداية سنتطرق لخلاص التسامح الذي عادة ما يقترن به مفهوم الخلاص فهو الذي إعتبره لوك أنه ينقلنا من حالة التسامح إلى اللاتسامح، بإعتبار أن الخلاص هو من يهيئ الأرض لنشوء التسامح، لأن الخلاص يتأسس على المحبة والسلم فبواسطته يقوم الفرد بتطهير نفسه من الخطايا دون الحاجة إلى غيره ولا يتأتى من القتل والردع، واعتمد من الخلاص إذا افرغ من كل ما يتضمنه مما هو ديني وإخلائه من كل أنواع القهر والقمع والاضطهاد لكونه يتعلق بالفرد ذاته دون سواه، وهذا فيما يتعلق بالصعيد الديني، أما عن الصعيد السياسي، رأى لوك بأن الخلاص هو الضمان الوحيد لأمن الدولة واستقرارها، ولذلك يتوجب على الحاكم المدني عدم الخوض فيه لتفادي الإنشقاق والفتن وتركه مسألة شخصية تخص كل فرد بذاته[3].

ويعتبر جون لوك بأن التسامح كغيره من القيم الإنسانية، ناتجة عن واقع معاش تعددت فيه العوامل الاجتماعية والثقافية الخ، مما ساهمت هذه العوامل في صياغة طابع جديد لدى أوروبا، وهذا بإعتبار أن التسامح ركيزة لأوروبا لخروجها من ذلك التخبط الذي شهادته آنذاك، ولذا يتوجب التسليم والأخذ به بين الملل والمذاهب المختلفة، والملاحظ في أن معنى التسامح الحقيقي عند لوك يقوم على أساس النظرة العقلية لدين وبالأصح عقلنة الدين والتخلص من الأوهام الدين المضللة من قبل رجال الدين[4].

ولهذا نجد أن جون لوك في بنائه لمفهوم التسامح لم يقمه على الكتاب المقدس بل ذهب ليؤسسه على قوام المعرفة الإنسانية والتي ميزتها الأساسية أنها غير مطلقة ومحدودة لكونها تستند على الحدس والبرهان وترك المعرفة الحقة والمطلقة أنها لا تعود ملكيتها لأحد

[1] بومعراف ايمان، قتاتلية نوال، فلسفة التسامح عند جون لوك، مذكرة مكملة لنيل الاجازة العلمية ماجستير، الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية، 2018م.

[2] جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمة منى أبو ستة، المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة، 1999م.

[3] أسيا حمداوي، حمدة حمداوي، نقد فلسفة التسامح عند جون لوك، مذكرة لنيل شهادة الماستر، جامعة قاصدي مرباح -ورقلة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2019م.

[4] بن سليمان عمر، مفهوم التسامح في الفكر العربي الإسلامي المعاصر، دراسة تحليلية لمفهوم التسامح وتأصيله في التراث، أطروحة منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، 2011م، ص64-65.

بل هي ملك الله وحده وهذا هو عماد التسامح عنده للمعرفة الحقة، إضافة إلى ذلك أن التسامح حسبه لم يكن ضد الدين ولا ضد العقل فالتسامح الغاية منه هو إيجاد حل ذو طابع عقلاني لتخلص من الصراعات[5].

المطلب الثاني: رسالة جون لوك في التسامح:

جاءت رسالة في التسامح في سياق أوروبي مضطرب اتسم بالصراع بين السلطة الدينية والسلطة السياسية، والحروب المذهبية التي مزّقت المجتمعات المسيحية، وقد كُتبت الرسالة سنة 1689 باللاتينية موجّهة إلى النخب المثقفة، في إطار تقليد فلسفي تواصلي يروم توضيح المواقف الفكرية، واختيار لفظ "رسالة" بدل "خطاب" يحمل دلالة حوارية عقلانية، تعكس توجه لوك إلى مخاطبة الوعي الفلسفي لا العامة.

تندرج الرسالة ضمن مشروع فكري يسعى إلى عقلنة الدين وتحريره من التوظيف السياسي، خاصة بعد الإصلاح البروتستانتي والاكتشافات العلمية التي زعزعت سلطة الكنيسة، وقد اعتبر لوك أن جوهر التسامح يتمثل في احترام حرية الضمير، وقبول الاختلاف الديني، وعدم جواز المساس بالحقوق المدنية باسم العقيدة.

أما غاية الرسالة، فلم تكن هدم الكنيسة بل إصلاحها، عبر التمييز الصارم بين وظيفتي الدين والدولة: فالدين غايته خلاص النفوس، بينما الدولة مهمتها حماية الحياة والحرية والملكية وضمان العدالة، ومن ثم دعا إلى الفصل التام بين السلطتين، مؤكداً أن الإيمان لا يُفرض بالقوة، لأن العقيدة فعل داخلي يقوم على الاقتناع الحر لا الإكراه.

وفي تجسيد روح التسامح، عرّف لوك الدولة بأنها مجتمع مدني هدفه صيانة الخيرات الدنيوية، في حين أن الكنيسة جماعة حرة ينضم إليها الأفراد طوعاً من أجل العبادة، لذلك لا يحق للحاكم التدخل في خلاص النفوس، كما لا يجوز للكنيسة استخدام القوة، لأن وسائلها تقتصر على الإرشاد والنصح. والإيمان الحق لا يتحقق إلا بالحجة والبرهان، لا بالعقوبات.

يرى الباحث أن التسامح عند لوك ليس مطلقاً، أي أنه وضع له حدود، فرفض التسامح مع الآراء التي تهدد النظام المدني، أو مع الجماعات التي تدين بالولاء لسلطة أجنبية، كما لم يتسامح مع من ينكر وجود الله، باعتبار أن الإيمان أساس الروابط الأخلاقية والاجتماعية، وهنا تظهر مفارقة مشروعه، إذ دعا إلى حرية الاعتقاد لكنه استثنى الإلحاد، مما يكشف توتراً بين نزوعه الليبرالي وخلفيته الدينية، ويطرح إشكالاً حول مدى كونية مشروعه في التسامح[6].

- **أنواع التسامح:-**

1. **التسامح السياسي:**

ويقصد بالتسامح السياسي أنه نتاج الصراعات والخلافات بين البشر، فهو يظهر عندما تتعدد المواقف السياسية وتحدث نزاعات بين الأطراف المختلفة، فالبعض يرى التسامح السياسي قيمة أخلاقية وإنسانية تدعو إلى التفاهم ونبذ العنف، ويرى آخرون بأن (التسامح موقف متعجرف وأبوي وقمعي بالقوة، وبالنسبة لبعضهم فإن التسامح تعبير عن اليقين الذاتي وقوة الشخصية)[7].

2. **التسامح الثقافي:**

يرى الباحث ان المقصود بالتسامح الثقافي هو احترام التنوع الثقافي والفكري بين الشعوب والمجتمعات، أي تقبّل العادات والتقاليد المختلفة دون تعصب أو رفض، وهو يعني أيضًا الانفتاح على الأفكار الجديدة والتطورات الثقافية، وعدم التمسك الأعمى بالموروثات القديمة، فالتسامح الثقافي يشجع على التعايش والتجديد، ويُعزز التفاعل الإيجابي بين الثقافات المختلفة.

3. **التسامح الفكري:**

[5] بن سليمان عمر، المرجع نفسه، ص66.
[6] قريشي محمد، بن بوحة احمد، أسس وقواعد التسامح في فكر جون لوك، مجلة الاصالة للدراسات والبحوث، مجلد04، 2022م.
[7] صالح شقير، تفعيل مفهوم التسامح فلسفيًا، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 36، العدد 5، 2014م.ص 147

يعني التسامح الفكري التفتح على الأفكار المختلفة، والابتعاد عن التعصب لها، مع الالتزام بأسلوب النقاش المهذب والمنطقي، واحترام حق الآخرين في التعبير عن آرائهم وممارسة الاجتهاد الفكري.

4. التسامح الاجتماعي:

يُعد التسامح الاجتماعي من الركائز الأساسية لبناء المجتمعات المتماسكة والمستقرة، فهو يعكس القدرة على العيش المشترك بين أفراد المجتمع المختلفين ثقافيًا، دينيًا، أو فكريًا، مع احترام حقوق الإنسان الأساسية.

ويتضح من هذا التعريف أن التسامح لا يعني بالضرورة الموافقة على كل الأفكار أو السلوكيات، بل يشير إلى القدرة على تقبل وجهات النظر المختلفة واحترامها، حتى عند الاختلاف العميق في المواقف أو القيم.

المبحث الثاني

ماهية الدولة المدنية عند جون لوك

المطلب الأول: مفهوم الدولة المدنية عند جون لوك:

يرى جون لوك أن المجتمع المدني في مرتبة المراقب للدولة وجعله مصدرا لشرعيتها، كما يمكن للمجتمع المدني أن يمارس سلطة العزل المنظم عن طريق الانتخابات الدورية بدلا من العصيان العنيف، وفي المقابل من واجب أفراد المجتمع المدني طاعة السلطة الحاكمة ما دامت ملتزمة بعناصر عقدها الاجتماعي معهم، فحسب جون لوك" من واجب الدولة أن تضمن للمواطن المساواة أمام القانون الحرية، الاندماج، والملكية، والا لهم الحق في التمرد والعصيان بمقتضى المجتمع المدني[8].

لمجتمع المدني عند جون لوك هو جماعة سياسية تقوم على عقد اجتماعي إرادي بين الأفراد، يهدف إلى حماية حقوقهم الطبيعية في الحياة والحرية والملكية، ويجعل من الشعب مصدر شرعية السلطة ورقيبًا عليها، وتكون سلطة الحاكم فيه مقيدة بشروط العقد، قابلة للعزل إذا أخلّت بواجباتها، مقابل التزام الأفراد بطاعتها ما دامت تحترم القانون وتضمن المساواة والحقوق الأساسية.

يتسم المنهج عند جون لوك بالطابع التجريبي، إذ انطلق في فلسفته المعرفية من اعتبار الحواس المصدر الأول للمعرفة، رافضًا فكرة الأفكار الفطرية التي تبناها ديكارت، فالعقل عنده يولد صفحة بيضاء، وتتكون الأفكار من التجربة الحسية أولاً ثم تتطور إلى أفكار مركبة عبر التأمل والمعالجة العقلية، وانسجم منهجه السياسي مع هذا الأساس المعرفي، حيث رفض نظرية الحق الإلهي للملوك، مؤكدًا أن البشر يولدون أحرارًا ومتساوين بطبيعتهم، ولا يمتلك أحد حقًا فطريًا أو إلاهيًا في حكم غيره، وبما أن الناس متساوون في الأصل والطبيعة، فإنهم يتساوون كذلك في الحقوق الطبيعية، ويخضعون جميعًا لقانون واحد هو قانون الطبيعة[9].

وقد تجلت هذه الرؤية في كتابه في الحكم المدني، الذي شكّل نقدًا جذريًا للحكم المطلق ودفاعًا عن نظام سياسي يقوم على رضا الشعب وتقييد السلطة، وقد مثّل هذا الكتاب تحولًا نوعيًا في الفكر السياسي الحديث، إذ أسّس لمشروعية مقاومة الاستبداد، وحدّد صلاحيات الحاكم في إطار القانون، مما جعله دعامة نظرية للثورة الإنجليزية وبناء النظام الدستوري.

سعى لوك إلى التمييز بين واقع المجتمع المدني والهيكل الحكومي أو السلطة، وبين أن الناس المنضمين إلى المجتمع المدني والسياسي تحت قناعة قانون ثابت من خلال تشريع سلطة لأراء الناس سواء أكانوا حكاماً أم محكومين، والمجتمع الذي لا توجد فيه حكومة لا يمكن أن يفعل شيئا، ولكي يكون الحاكم عادلاً ينبغي أن يكون مسلحاً بسلطة رعاياه، وقوتهم من أجل معاقبة من ينتهكون حقوق الآخرين[10].

المطلب الثاني: نشأة الدولة المدنية:

[8] نسيمة مغرابي، محاضرات في الدولة والمجتمع المدني، جامعة البليدة حقوق وعلوم سياسية، 2024م.

[9] عبدالله الطاهر مسعود، الحكومة المدنية بين جون لوك وجان روسو، دراسة مقارنة في طبيعة المجتمع السياسي، مجلة كلية الاداب العدد التاسع والعشرون، 2020م.

[10] شوقي ايمان، نظام الحكم في الفكر السياسي لجون لوك، مذكرة ماستر، جامعة محمد خيضر -بسكرة، كلية العلوم الاجتماعية والسياسية، 2024م.

تُعدّ ظاهرة الدولة المدنية نتاجًا لتطور طبيعي وسلسلة طويلة ومترابطة من التحولات الفكرية والواقعية التي شهدها التاريخ الأوروبي، فقد كان النظام السائد في القرون الوسطى يقوم على بنية اجتماعية تراتبية وسلطة مطلقة تستمد مشروعيتها من مرجعية دينية، سواء عبر الكنيسة أو من خلال نظرية الحق الإلهي للملوك، غير أن هذا النموذج الثيوقراطي بدأ يتعرض للتفكيك مع تنامي الوعي بضرورة تحرير السلطة السياسية من القداسة الدينية[11].

وجاءت الدولة المدنية كتعبير عن هذا التحول، حيث أسهمت الليبرالية في ترسيخ منظومة قيم حديثة قائمة على الحرية الفردية، وسيادة القانون، والمساواة، وحياد الدولة تجاه المعتقدات. كما كان للإصلاح البروتستانتي دور في إضعاف هيمنة الكنيسة، بينما مثّلت أفكار ماكيافيلي خطوة جذرية في نزع الطابع الديني والأخلاقي المطلق عن السياسة، وطرح مفهوم "الإمارة المدنية"، ثم جاء العقد الاجتماعي ليؤسس شرعية السلطة على الإرادة البشرية والاتفاق الحر، لا على التفويض الإلهي، مما مهّد لبلورة مفهوم الدولة المدنية الحديثة.

- **الدولة المدنية عند جون لوك:**

يرى جون لوك أن الأفراد في طبيعياً يتمتعون بالحرية والمساواة ويمتلكون حقوقًا طبيعية، لكن غياب السلطة يجعل حقوق الافراد عرضة للاعتداء، لذلك يتفق الناس طوعًا على إنشاء مجتمع مدني يتنازلون فيه عن جزء من سلطتهم لصالح هيئة حاكمة تتولى سنّ القوانين وتنفيذها بهدف تحقيق الأمن وحماية الحياة والملكية[12].

ويؤكد لوك أن الغاية الأساسية من قيام الدولة ليست السيطرة أو الإكراه، بل حفظ السلام وضمان الحقوق، فالقانون يجب أن يسري على الجميع دون استثناء، ولا يحق لأي فرد التهرب منه لأنه تعبير عن الإرادة المشتركة للمجتمع.

كما يرفض لوك الحكم المطلق، ويرى أن منح السلطة المطلقة لحاكم فرد يعيد الناس إلى وضع أشد خطرًا من حالة الطبيعة، لأن السلطة غير المقيدة تهدد الحرية بدل أن تحميها، لذلك يجب أن تكون السلطة مقيدة بالقانون وخاضعة للمساءلة.

يرى الباحث أن المجتمع المدني بنظر لوك يهدف إلى حماية الحقوق الطبيعية عبر سلطة قانونية محدودة، خاضعة للقانون، ومؤسسة على المساواة بين الأفراد، وهو الأساس النظري الذي مهد لفكرة الدولة المدنية الحديثة.

يرى جون لوك أن الإنسان في مرحلة الطبيعة يتمتع بالحرية والمساواة، على عكس هوبز الذي وصفها بأنها مرحلة من التوحش والسيطرة للقوي على الضعيف، ففي نظر لوك يتمتع كل فرد بسيادة كاملة على نفسه وحقوقه، بما في ذلك الحرية والملكية، وتكون هذه المرحلة حالة سلام وأمن وإخلاص، فالحرية عنده هي المبدأ الأساسي، ومن يسلب حرية إنسان يهدد حياته نفسها، إذ أن فقدان الحرية يعني فقدان مقومات الحياة والتعرض للتعاسة والشقاء، وقد يؤدي ذلك إلى الحرب والموت[13].

وعند انتقال الإنسان من مرحلة الطبيعة إلى الدولة المدنية، يرى لوك أن الدولة تشكلت لحماية الحقوق والحريات الطبيعية، وتوفير الحياة المدنية وتنميتها، بما يشمل الحياة، الحرية، الصحة، راحة الجسد، وامتلاك المال والممتلكات الأخرى، وأن الإنسان في حالة الطبيعة يمتلك المبادئ الأخلاقية كالحرية والمساواة، ما يجعله فرداً صالحاً يسعى لتحقيق أغراضه عبر السلم وعدم التعدي على حقوق الآخرين، وتظل الحرية والمساواة أهم ما يميز الإنسان في نظر لوك.

فيما يتعلق بمرحلة الطبيعة، يختلف لوك عن هوبز، فبينما يرى هوبز أن هذه المرحلة حالة من التوحش والسيطرة للقوي، يرى لوك أنها مرحلة حرية ومساواة، حيث يكون كل فرد مساوياً لأخيه في الملكية والحرية، ويتمتع بالسيادة على نفسه من خلال إدارة شؤونه الخاصة، هذه المرحلة تتسم بالسلام والأمن والإخلاص، فالحرية فيها هي المبدأ الأساسي، ومن يسلب حرية إنسان يهدد حياته ومقوماتها، وقد يؤدي ذلك إلى التعاسة والشقاء وحتى الحرب والموت.

---

[11] إحسان عبدالهادي النائب، بشتيوان محمد امين، بناء الدولة المدنية، دراسة في الأسس والملتزمات، المديرية العامة لتربية كريمان، 2020م.

[12] جون لوك، الحكومة المدنية بقلم جون لوك، وصلتها بنظرية العقد الاجتماعي لجان جاك روسو، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، ص69-81.

[13] رضوان السيد، في المجتمع المدني والدولة المدنية، مستشار تحليل مجلة التفاهم،

أما الدولة المدنية، فهي في نظر لوك مجتمع من البشر يتشكل لضمان الحياة المدنية وحمايتها وتنميتها تشمل الخيرات المدنية: الحياة، الحرية، الصحة، راحة الجسد، وامتلاك المال والممتلكات والهدف من الدولة هو حماية الحقوق والحريات الطبيعية التي يتمتع بها الإنسان في مرحلة الطبيعة، وضمان العيش في سلم وعدم التعدي على حقوق الآخرين، ومن هنا تعتبر الحرية والمساواة أهم ميزتين يطبع بهما الإنسان في الطبيعة، وتستمر الدولة لحمايتهما[14].

من خلال دراسة أفكار جون لوك، يرى الباحث أن التسامح يشكل الركيزة الأساسية التي قامت عليها رؤيته للدولة المدنية بالنسبة لي يبدو أن لوك يرى أن التسامح ليس مجرد قيمة أخلاقية، بل أداة سياسية تضمن ترتيب المجتمع بطريقة توازن بين حرية الفرد واستقرار الدولة، عندما فصل بين الدين والدولة، لم يكن يقصد مجرد النظرية، بل أراد أن يمنع الصراعات الدينية من أن تهدد النظام المدني، ويخلق مناخًا يسمح للأفراد بممارسة معتقداتهم بحرية دون تدخل من الحاكم أو الكنيسة.

كما يعتقد أن التسامح عند لوك لم يقتصر على حماية العقيدة الفردية، بل كان وسيلة لضمان احترام الحقوق الطبيعية، مثل الحياة والحرية والملكية، والتي تُعد الأساس لأي دولة مدنية فعالة من هذا المنظور، يمكن القول إن التسامح يتحول إلى مبدأ مؤسسي للدولة فهو يضع حدودًا للسلطة ويجعل المجتمع المدني مراقبًا للحاكم، ويحول العقد الاجتماعي إلى ضمانة لحقوق الجميع.

كما يرى الباحث أن القيود التي وضعها لوك عن التسامح – مثل عدم التسامح مع الملحدين أو الجماعات التي تهدد النظام – تعكس وعيه بالحاجة إلى توازن دقيق بين الحرية الفردية والأمن العام، وهو ما يجعل مشروعه عمليًا رغم بعض المفارقات النظرية ومن هذا المنظور الشخصي، يعتبر التسامح عند لوك أداة مركزية لبناء دولة مدنية حديثة قائمة على القانون، العدالة، والمساواة، بحيث لا يكون الحاكم فوق القانون، ولا يُستعبد الفرد بسبب عقيدته، بل تُصان حرية الضمير كجزء أساسي من وظيفة الدولة نفسها.

- **النتائج:**

1. التسامح كقيمة سياسية وأخلاقية: أظهر البحث أن التسامح عند لوك ليس مجرد فضيلة أخلاقية، بل مبدأ سياسي رائد، يؤسس لعلاقة متوازنة بين الأفراد والدولة، ويحمي الحقوق المدنية دون التعدي على حرية المعتقد.
2. الفصل بين الدين والدولة: أكدت الدراسة على أن لوك وضع أسسًا واضحة للفصل بين السلطتين، إذ غاية الدين خلاص النفوس، وغاية الدولة حفظ الحقوق المدنية، وهو ما يضمن عدم استغلال الدين لأغراض سياسية.
3. مفارقات التسامح: على الرغم من دعوته لحرية الاعتقاد، استثنى لوك الملحدين والجماعات الخارجة عن النظام المدني، ما يعكس حدود مشروعه ويطرح إشكالية حول كونيته في تطبيق التسامح.
4. الدولة المدنية الحديثة: البحث أبرز أن الدولة عند لوك تقوم على العقد الاجتماعي، حيث تكون السلطة مقيدة بالقانون، والشعب مصدر شرعيتها، وهو ما مهد لتطور مفاهيم الديمقراطية الحديثة وحقوق الإنسان.
5. أثر التسامح على الاستقرار الاجتماعي: وجد البحث أن التسامح الديني، إذا ما ارتبط بضوابط واضحة، يسهم في حماية السلم الاجتماعي، ويقلل من الصراعات الدينية والسياسية، ويؤسس لمجتمع مدني متوازن.

المصادروالمراجع

1. إحسان عبدالهادي النائب، بشتيوان محمد امين، بناء الدولة المدنية، دراسة في الأسس والملتزمات، المديرية العامة لتربية كريمان، 2020م.
2. أسيا حمداوي، حمدة حمداوي، نقد فلسفة التسامح عند جون لوك، مذكرة لنيل شهادة الماستر، جامعة قاصدي مرباح - ورقلة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2019م.
3. بن سليمان عمر، مفهوم التسامح في الفكر العربي الإسلامي المعاصر، دراسة تحليلية لمفهوم التسامح وتأصيله في التراث، أطروحة منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، 2011م.

[14] كريمة محجوبي، منيرة تقرتي، اسس ومقومات الدولة الحديثة، مذكرة مقدمة لاستكمال الاجازة العلمية ماجستير، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2015م.

4. بومعراف ايمان، قتاتلية نوال، فلسفة التسامح عند جون لوك، مذكرة مكملة لنيل الاجازة العلمية ماجستير، الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية، 2018م.
5. جون لوك، الحكومة المدنية بقلم جون لوك، وصلتها بنظرية العقد الاجتماعي لجان جاك روسو، مطابع شركة الإعلانات الشرقية.
6. رضوان السيد، في المجتمع المدني والدولة المدنية، مستشار تحليل مجلة التفاهم.
7. صالح شقير، تفعيل مفهوم التسامح فلسفيًا، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 36، العدد 5، 2014م.
8. شوقي ايمان، نظام الحكم في الفكر السياسي لجون لوك، مذكرة ماستر، جامعة محمد خيضر -بسكرة، كلية العلوم الاجتماعية والسياسية، 2024م.
9. عبدالله الطاهر مسعود، الحكومة المدنية بين جون لوك وجان روسو، دراسة مقارنة في طبيعة المجتمع السياسي، مجلة كلية الاداب العدد التاسع والعشرون، 2020م
10. قريشي محمد، بن بوحة احمد، أسس وقواعد التسامح في فكر جون لوك، مجلة الاصالة للدراسات والبحوث، مجلد04، 2022م.
11. كريمة محجوبي، منيرة تقرتي، اسس ومقومات الدولة الحديثة، مذكرة مقدمة لاستكمال الاجازة العلمية ماجستير، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2015م.
12. نسيمة مغرابي، محاضرات في الدولة والمجتمع المدني، جامعة البليدة حقوق وعلوم سياسية، 2024م.